دروس مستفادة من حياة العلاَّمة اطفيش القطب الجزائري

د/ كمال بـــــابكر
جامعة عثمان بن فودي صكتو
نيجيريا

مقدمة:

من المشكلات التي تواجه الأمة الإسلامية في العالم شرقا وغربا، هو عدم الالتفات إلى الوراء أو حتى النظر في مِرآة التاريخ... لعلها تعكس لنا شخصيات تحمل –همموم– وحلول تلك المشكلات. فالتاريخ والتراث الأممي مليء بهذه الحلول؛ فمثلا في شمال القارة الأفريقية وبالتحديد الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. لقد أفرزت لنا قطبا من أقطاب الأيمة وهو العلاَّمة اطفيش؛ القطب الجزائري.

إذن هذه المقالة سوف تتناول –إن شاء الله– بعض الدروس المستفادة من حياة العلامة اطفيش القطب الجزائري. ومثل هذه الدراسة تتطلب النقاط التالية:

- نبذة تاريخية عن حياة العلامة اطفيش.
- الدروس المستفادة من حياته؛ وهي تتلخص في الجوانب التالية:
  - الجانب الديني.
  - الجانب العلمي.
  - الجانب الاجتماعي.
  - الجانب الإصلاحي.
  - الجانب السياسي.

ومن خلال هذه الجوانب الخمس يرجو الباحث أن يتوصل إلى نتائج تدفع عجلة التقدم والازدهار إلى الأمام.

نبذة تاريخية عن حياة العلامة اطفيش:

رجال صدقوا فصنعوا التاريخ، وهم صدق التاريخ، وأصبح مثالا يضرب ويحتذى به على مرِّ العصور؛ والحق يقال في أي مكان وزمان، طالما حَمَلَهُ التاريخ وعاش فيه رجال ما زالوا قطبا يهتدى به على مرِّ الأزمان. فحياة الرجال تاريخ وتاريخهم حياتهم؛ وحياتهم أمل لِمَن أراد أن يحيى حياة سعيدة وكريمة. والجزائر جزء لا يتجزأ في تاريخه المعروف بالبطولات في شتى المجالات؛ التحررية أو الثقافية أو الاقتصادية. ومما أفرزته البطولات الثقافية العلاّمة القطب المجاهد والمصلح والمجدد ونور زمانه ومفتي دياره: شيخ الإباضية الجزائري الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش[1]، أشهر علماء الإباضية بالمغرب الإسلامي في العصر الحديث.

وينتسب إلى عائلة شهيرة بالعلم والعلماء؛ ولد بغرداية وعاش فيها. وفي الرابعة من عمره توفي والده؛ وتركه يتيما تحت كفالة والدته[2] التي تعهدت به إلى أحد المربين لحفظ القرآن الكريم؛ فختمه وحفظه وهو ابن ثمان سنوات. وتلقى العلم من كبار العلماء وحلق الدروس بالمسجد؛ فرسخ اقتناء العلم في ذهنه وعقله ووعيه وإدراكه بل أصبح التحصيل له سمة بارزة في معارج حياته؛ وكان العلامة القطب محمد بن يوسف اطفيش؛ حاد الذكاء قوي الذاكرة يرغب في تحصيل العلم؛ وهذا جعله يحرص على جمع الكتب واستنساخها ويجتهد في طلبها واشترائها من كل البلدان.[3]

عوامل تكوينه:

لا شك قد تضافرت عوامل شتى في تكوين العلاَّمة محمد بن يوسف اطفيش –القطب الجزائري– لأن الإنسان لا ينهض دفعة واحدة؛ وإنما ينطلق لظروف وملابسات عدة. والباحث لا يستطيع أن يختزل الشيخ ومآثره في سطور، ولكن هذا لا يمنع أن يتحدث بإيجاز عن عوامل تكوينه.

عامل البيئة:

فأول ما يذكر هنا عائلته الشهيرة بالعلم والعلماء؛ ثم يلي ذلك عشيرته التي كانت في يوم

من الأيام من الأسرة المالكة بتونس. وبلدة **غرداية** التي ولد فيها قد تركت فيه آثارا بالغة تمثلت في البيئة الصحراوية وصفاء أهلها ورقتهم وبساطتهم في الحياة؛ وما كان لها من موقع وسط بين الجلفة والأغواط شمالا وتمنراست جنوبا، وورقلة شرقا، وغربا البيض وأدرار[4].

هذا الموقع جعلها مأوى وملتقى للعلماء الوافدين من الشمال والجنوب والشرق والغرب؛ وأثَّر هذا في تعلُّمه وإنتاجاته العلمية. ومدينة غرداية بهذا الموقع تقوم بدور التوصيل الفكري للثقافة الإسلامية بين أنحاء الجزائر.

ومهما يكن من أمر فقد تأثر العلاَّمة محمد بن يوسف اطفيش بهذه البيئة التي أثارت فيه حبَّ العلم والتعلُّم والتَّعليم والتَّأليف والاجتهاد وصدَق مَن قال: «الإنسان ابن بيئته»

عامل المزاج:

إذا كان المزاج استعداد جسدي وعقلي خاص بالفرد[5] فلا شك أن القطب الجزائري – اطفيش– مِزاجه حسٌّ مرهفٌ وشعورٌ ثاقبٌ ونورٌ وهاجٌ يُهتدى به في ظلمات الحياة؛ وبهذا النور أصبح لعقله سلطانٌ كبيرٌ في مراحل حياته العلمية والعملية؛ ويستخلص هذا من طفولته الأولى وهو ذا بصيرة نافذة، وذكاء خارق وسريع الحفظ وقيل فيه: «ما كاد يبلغ السادسة عشرة، حتى جلس للتدريس والتأليف؛ ولما بلغ العشرين أصبح عالم وادي **ميزاب**، ثم بلغ الاجتهاد المطلق في كهولته، كما يذكر بنفسه في كتابه شامل الأصل والفرع»[6]. ومزاجه هذا جره إلى جمع عدد كبير من المصادر والمراجع؛ فتجمعت لديه مكتبة غنية وفريدة عصرها، وانكبَّ عليها وارتوى ما شاء الله أن يرتوي منها قبل أن يقتني من علوم ومعارف وفنون. وبذلك قوى مِزاجه وعظم طابعه العقلي على الاطلاع والجمع والتأليف.

عامل الثقافة:

يحتل القرآن الكريم الطليعة الأولى من بين منابع ثقافة الشيخ القطب، اطفيش؛ ويلي القرآن الحديث النبوي الشريف، وبهما يستند في تأصيل العلوم والفنون، وقد ظلا ولا يزالا مدار كل ما توصلت إليه المعارف الإنسانية. لا شك إن سعة ثقافته صنعت منه موسوعة كبرى، اتسعت لعلوم منها: تفسير القرآن الكريم، والتجويد، والحديث، والسيرة النبوية،

والتوحيد، وعلم الكلام، والعَروض، والبلاغة، والمنطق، والطب، والفلك ، والحساب، والخط. فلولا ثقافته الواسعة –اللسانية والأدبية والفكرية– لَما تبحر في هذه العلوم، وألَّف فيها كل هذا الكم الهائل.

فمن خلال هذه العوامل الثلاث: عامل البيئة، عامل المِزاج، عامل الثقافة؛ تكوَّنت شخصية الشيخ القطب اطفيش العلمية. ونالت ما نالته من الشهرة، ولاسيما أنه عاش طويلا[7]. وأمثال هؤلاء الرجال لا تخلو حياتهم من دروس يستفاد منها في جوانب عديدة منها ما يأتي:

- الجانب الديني.
- الجانب العلمي.
- الجانب الاجتماعي.
- الجانب الإصلاحي.
- الجانب السياسي.

ولتتكشف الدروس المستفادة من حياة العلاَّمة اطفيش؛ يرى الباحث من الضروري دراسة تلك الجوانب واحدة تلو الأخرى كما يلي:

الجانب الديني:

هذا الجانب من أهم الجوانب التي يستفاد منها في عصرنا الحالي؛ ولاسيما عندما نلقي نظرة على الحالة الدينية التي نعيش فيها؛ وتحاك المؤامرات والدسائس ضد الإسلام وضد معتنقيه ليلا ونهارا. وللأسف الشديد أحيانا بمشاركة معتنقيه في وضع تلك الدسائس بشعورهم أو بدون أن يشعروا بذلك. فحياة العلامة اطفيش الدينية مثال يحتذى به في العالم الإسلامي؛ فهو عالم، عالي الهمة، قوي العزيمة، يعتز بالله عز وجل ثم بنفسه ووطنه. عاش ليتعلم ويعلم ويؤلف؛ عاش ليكون مثلا يحتذى به؛ عاش ليعيش الآخرين على دينهم، بل عاش العلاَّمة اطفيش لتتوارث الأمم والشعوب من بعده صفاته وأخلاقه وثوابته الدينية.

وما قام به من تأليفات في السيرة النبوية والتوحيد وعلم الكلام والفقه أروع ما صورته

حياته من أجمل اللقطات التي مثلت مبادئ وحياة أي أمة أرادت لنفسها الحياة الكريمة؛ لأن الحياة التي لا دينية فهي لا مدنية ولا حضارية؛ وعصرنا هذا شاهد على ذلك. عندما سلب الدِّين في الدول المتحضرة والمتقدمة تقنيا؛ تراكمت عليها الأمراض الاجتماعية والنفسية. ولقد أدرك العلاَّمة اطفيش، أن منبع السعادة ومِفتاح الشهامة لا يكون إلا بالعلم؛ وهو أول ما نادى به الدين الإسلامي[8]؛ وحبا للدين والمعرفة تمسك بالعلم. ومؤلفاته من الشاهدين. ومنها على سبيل المثال: في التفسير؛ بعنوان: **داعي العمل ليوم الأمل؛ وهميان الزاد إلى دار الميعاد**[9]. وفي الحديث النبوي ما ألفه بعنوان: **وفاء الضمانة بأداء الأمانة**. هذا على سبيل المثال مما ألفه في الدراسات الإسلامية. فإذا توسع الباحث في مؤلفاته فلا شك أنه يجد أمامه مدرسة للعالم الإسلامي وغير الإسلامي.

الجانب العلمي:

حقا إن رجال الدين في الزمن المعاصر فرض عليهم ما يسمي بالتخصص. مثلا نجد عالما متخصصا في الفقه أو أصول الفقه؛ أو في الحديث النبوي الشريف؛ أو في مقارنة الأديان وغير ذلك من التخصصات المجالية... ولكن إذا وقف الباحث أمام سيرة حياة العلاَّمة اطفيش فيجد فيه أن الزيادة على التخصص أمر هام للعالِم لأن بهذه الزيادة يصبح موسوعة زمانه، والعلاَّمة اطفيش أتمَّ حياته في البحث العلمي وزاد على تخصصه الديني ببحوث وعلوم أخرى كالتأريخ، والنحو، واللغة، والعروض، والأدب، والبلاغة، والطب، وعلم الفلك، والحساب. ومما ألفه في الطب[10]: **تحفة الحبِ في أصل الطب**، وفي علم الفلك: **مطلع المَلَك في فنِّ الفلكِ**. وكتاب آخر في علم الفلك بعنوان: **مسلك الفلك**. فهذه التأليفات رد قوي على القائلين بأن رجال الدين جامدوا الثقافة، فها هو العلامة اطفيش القطب الجزائري مثال يضرب ويحتذى به في إنتاجاته العلمية من خلال حياته.

الجانب الاجتماعي والإصلاحي:

إن لفظة الاجتماعي التي أصلها من لفظة "مجتمع" نسبة لكلمة المجتمع وقد تحمل موضوعا من المواضيع: كالعلاقات الزوجية أو الأبناء أو موضوعا أسري، أو غيره من النظم

الاجتماعية[11]؛ وبصورة أوسع من ذلك قد يطلق على «مجتمع تَشكلَّ على وضع شرعي أو قانوني لجماعة» فالوضع الاجتماعي الحالي في أمس الحاجة إلى تعاليم ومفاهيم منهجية العلاَّمة اطفيش. فحياته الزوجية لم تكن له سدا أو مانعا؛ في تحقيق أمانيه وطموحاته الحياتية، تجاه نفسه ومجتمعه الذي كان في أشد الحاجة للإصلاح. والشيخ اطفيش حقا أنه مصلح زمانه وزمان غيره وذلك يتمثل فيما قاله الأستاذ بالحاج أوزايد[12] ناقلا قول العلاَّمة ومعلقا عليه «وإنما يتخلق الإنسان بأخلاق أهل زمانه فيما لا يخالف السنة والقرآن ولا يؤدي إلى مخالفتهما ولا يكون شرعا منه» ويوحي هذا الرأي باستفادة الشيخ من المنهج الذي جاء به الإسلام واتبعه الرسول ﷺ، فلم يكن الإسلام رافضا لكل ما كان عليه الناس ولم يكن مصادما للفطرة الإنسانية السليمة؛ بل جاء مهذبا إياها مبصرا الناس إلى ما يسعدهم في دنياهم وأخراهم ولم تكن الأخلاق والأعمال الصالحة منعدمة في الجاهلية.

هذه هي حقيقة فلسفة العلامة اطفيش في إصلاح مجتمعه، وبذلك المنهج عمل مجاهدا بكل إخلاص في تقديم النصح وتصحيح كثير من المفاهيم الضالة والاعتقادات الفاسدة. خاض كفاحا اجتماعيا مريرا عدة سنوات رافضا التخلف والتعصب المذهبي داعيا بأعلى صوته إلى العلم النافع الذي به يتم تطهير النفوس من الرجز.

لا شك أن الأمة الإسلامية في الوقت الراهن، في حاجة إلى منهج الشيخ اطفيش في تصحيح المفاهيم الفاسدة والتي شملت جل مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية؛ والاقتصادية، والدينية... وخاصة ما يسود اليوم بين المسلمين من التناحر والتنافر والحروب لأجل تحقيق أهداف ومآرب دنيوية؛ (أجنبية).

فمن أصعب الطرق الحياتية التي تواجه المصلح في أي زمان ومكان؛ عملية الإصلاح -نفسها- لأنها دائما ما تواجه بالرفض السريع؛ ولكن المصلح الحكيم سرعان ما ينتصر على هؤلاء الرافضين. فهذا شأن الشيخ العلاَّمة اطفيش، الذي واجه العداء من أعدائه ومن بعض الجهلاء، بحقيقة دعوته الإصلاحية؛ وهذا بالطبع مشكلة كل داع للحق وكل مصلح لمجتمعه.

فحياة العلامة اطفيش كلها مدرسة إصلاحية لمجتمعنا المعاصر؛ مجتمع فقد الأمل في كل

شيء طلبه في حياته، مجتمع كاد أن يجن جنونه بسبب ما يسمى بالعولمة؛ فقد هويته الحقيقية ولم يتوصل إلى أي هوية جديدة؛ مجتمع بدأ يتخبط ولا يدري أين المنتهى!!.. ولكن بهذه المدرسة الإصلاحية وبمنهجها القوي يتحقق لهذا المجتمع أو ذاك آماله وأحلامه.

الجانب السياسي:

عرفت الجزائر بين العالم العربي والإسلامي بالاحتلال الفرنسي المستدمر للشعب الجزائري وثرواته. وعرفت أيضا بالتضحيات من أجل استقلالها حتى أطلق عليها "أرض المليون شهيد" فهذه ميزة تمتاز بها –من دون غيرها من الدول المحتلة– فإذا كان ذلك كذلك فمن دون شك أن تأريخ استقلال الجزائر مليء بشخصيات نضالية حاربت الاستدمار الفرنسي...

ومن تلك شخصية العالم والشيخ المجاهد القطب الجزائري محمد بن يوسف اطفيش. لقد قام بدور هام وفعَّال في الجانب السياسي؛ وأصبح مثالا للسياسيين والسياسة؛ وذلك فيما قام به تجاه محاربة المستدمر الفرنسي ودعوته الحكيمة إلى الجهاد ومقاطعته بكل السبل المتاحة. وهذا أدى إلى سجنه من قبل الجنرال **دولاتور** في سنة 1882م[13] نعم بما أن المحتل خرج!! إلا أن ما زال الاحتلال يأخذ شكلا جديدا، وبالفعل بدأ يتبلور بأشكال مختلفة الألوان والأحجام؛ تتمثل في العولمة وأخواتها...!!! فمدرسة العلامة اطفيش يأتي دورها لحل المشكلات السياسية؛ والأمة الإسلامية في حاجة لها. بقلمه حارب المحتل الفرنسي، حين يكتب الرسائل محتجا من تصرفاتهم ومطالبا باحترام حقوق الأفراد والقوانين المعمول بها في بلده[14].

الخاتمة:

لا شك أن الشيخ العلامة محمد بن يوسف بن عيسى اطفيش؛ القطب الجزائري؛ عالم ومجدد ومجاهد ومصلح وإمام الإباضية في المغرب الإسلامي. ولد ونشأ بغرداية في وقت هي في أشد الحاجة إلى علمه وورعه. وانتشر صيته ونفعه فشمل الجزائر بل شمال إفريقيا، ولقد وهبه الله تعالى طول العمر والصحة والعافية؛ وهذا ما ساهم في كثرة تآليفه وشهرته بين

علماء المغرب الإسلامي.

ومن خلال سيرته الذاتية؛ أن هناك عوامل تضافرت في بعضها البعض (عامل البيئة – عامل المزاج – عامل الثقافة) وأنتجت للأمة الإسلامية هذا العلم الفذ. ومن الطبيعي أن نجد عَلاقة وطيدة بين تلك العوامل وبين جوانب حياته الدينية والعلمية والاجتماعية والإصلاحية والسياسية. وهذه العلاقة لها أثر كبير في تميزه عن غيره في زمانه.

والدارس لحياة العلامة اطفيش؛ يجد نفسه أمام مجموعة من الفوائد الحياتية التي بها يُروى الظمأ. وتلك العوامل لقد طرقت أهم جوانب الحياة والتي بها يجب أن يتصف بها كل إنسان أو كل مجتمع أو أي أمة. وبهذه الجوانب ترتقي الإنسانية إلى أرقى منازل الحياة. فمما يستفاد من الجانب الديني: الإخلاص لله وللوطن والإنسانية جمعاء، أما الجانب العلمي فهذا يثبت أن المسلمين من أمة "اقرأ" بل يبطل تلك الأقاويل التي تتهم الأمة الإسلامية بالجهل والتخلف. والعلامة اطفيش أكبر دليل على بطلان ما يدَّعون... عالم مجتهد طرق أبواب العلوم الدينية والدنيوية.

أما الجانب الاجتماعي والإصلاحي، فما يستفاد منه كثير؛ مثلا حياته الزوجية (تعدد الزوجات) ونضاله ضد المحتل وتصحيح كثير من المفاهيم والأفكار المنتشرة بين الناس؛ ومن الناحية السياسية فهو يدعو –بالحكمة– إلى محاربة المحتل ومقاطعته. ويعتبر من أكبر المناضلين في تحرير الجزائر.

لا شك أن بحثا في مثل هذه الشخصية، يتوقع من الباحث أن يتوصل إلى نتائج ملموسة؛ فمن تلك النتائج ما يلي:

- أن العلامة "اطفيش" أحد أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث.
- أن رجل الدين لا تنحصر علومه في الفلك الديني فقط بل تدور في الفلك الدنيوي أيضا.
- بكثرة تآليفه التي بلغت أكثر من عشرين نوعا من فنون الثقافة؛ يكون العلامة قد ساهم مساهمة جبارة في تلك العلوم.

- ضنك العيش والفقر ليس بالضرورة أن يكون عائقا في التعليم والتعلم؛ وزمان العلامة شاهد على ذلك.
- الحاسوب والإنترنت أو الهاتف النقال والاتصالات الحديثة... معدومة في زمن العلامة اطفيش فهذا يؤكد جهوده الجبارة وتعتبر معجزة بالنسبة لعصرنا هذا.
- هناك رابط قوي بين العلوم الإنسانية -إن صح التعبير- والدين؛ ولا يستقيم أي علم إن لم يكن المُثل العليا للدين ماثلة في تلك العلوم.
- إن من مؤلفات العلامة اطفيش؛ الكثير ما زال مخطوطا لم يطبع بعد.
- الحريات والكرامة للإنسان لا يصنعها الجهال؛ بل هي من صناعة العلم والعلماء.
- الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.
- إن كثرة التأليف من أهم وسائل نشر العلم وإصلاح المجتمع.
- ساهم (اطفيش) بأفكاره في نشر المذهب (الفكر) الإباضي.
- كثرة البحوث الأكاديمية حول هذه الشخصية؛ شهادة في حد ذاتها على ورعه وعلمه وعظمته لدى الشعب الجزائري والمغرب الإسلامي.

هذا ما تيسر للباحث من النتائج التي توصل إليها من خلال بحثه في حياة العلامة اطفيش (رحمة الله عليه) ومن المستحسن أن يتقدم بالتوصيات التالية:

- يجب على من يهمه الأمر أن يقوم بنشر مؤلفات الشيخ اطفيش، ولاسيما في إفريقيا عامة وغربها خاصة.
- على وزارة التربية والتعليم أن تدرِّس مثل هذه الشخصيات في المدارس لأبناء الشعب الجزائري بدلا من استيراد أفكار مدسوسة فيها سموم العولمة.
- دراسة أمثال هذه الشخصيات أصبح أمرا لازما؛ لأنها تحمل في تأريخها حلولا لمشكلات الحياة من عدة جوانب.
- على المؤسسات العلمية أن تربط بين العلم والمثل الدينية؛ أو ما يعرف بـــ"أسلمة المعرفة ".

- على مراكز التراث والمخطوطات؛ القيام بواجبها تجاه جمع وتحقيق مخطوطات العلامة اطفيش؛ ثم نشرها للفائدة العامة.

وبهذه التوصيات المتواضعة يأتي الباحث إلى نهاية هذا البحث برغم شح المصادر بيديه؛ سائلا المولى عز وجل السير على خطى أمثال العلامة الشيخ محمد بن يوسف "اطفيش" رحمة الله عليه.

الهوامش:

1) جمعية التراث؛ 7/15/ 2014م، ص 1.من موقع التراث الإلكتروني.

2) تُعرف أمه بالسيدة مامة سَتي بنت الحاج سعيد بن عدَّون بن يوسف.

3) جمعية التراث 2014/7/16م؛ ص1، من موقعها الإلكتروني.

4) أسماء الولايات الحديثة التي تحيط ببلدة غرداية: ولاية الأغواط:
www.ar.wikipedia.org/wiki

5) جمعية التراث؛ 7/15/ 2014م، ص1. من موقع التراث الإلكتروني. مِزاج المعاني:
.www.almaany.com

6) جمعية التراث امحمد بن يوسف بن عيسى؛ اطفيش؛2014/7/15م، ص1 موقع التراث الإلكتروني.

7) أُختلف في مولده؛ 1827م وبعض المصادر؛ 1820م وبعضها 1821م. أما وفاته فمتفق عليه؛ وذلك في عام: 1914م.

8) قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: 1-5].

9) راجع مؤلفاته في تفسير القرآن الكريم؛ جمعية التراث، امحمد بن يوسف اطفيش؛ 2014/7/9م، ص:3، من الموقع الإلكتروني لجمعية التراث، http//www.tourath.org/ar/index2.

10) المرجع السابق ؛ جمعية التراث؛ ص: 8: http//www.tourath.org/ar/index2 .

11) علم الاجتماع مدونة علمية؛ 2014/7/12م، www.ebthalmohamed.arabb.

12) جهود الشيخ اطفيش الإصلاحية ومواقفه الوطنية؛ 2014/7/18م؛ مجلة الواحات للبحوث والدراسات– العدد12 (2011). (alwahat.univ-ghardaia.dz)

13) عظماء وأعلام "عمان" والأيمة الإباضية قطب الأيمة محمد بن يوسف اطفيش، 2014/7/21م: alfida.arabblogs.com.

14) الشيخ محمد بن يوسف "اطفيش" مسجد التقوى – غرداية ؛ 2014/7/21م ؛ الكاتب قسم الإعلام بالموقع: www.etakwa.org/moussahmat/keraa.php?.